صفحات من الأدب الفارسي

« ناصر خسرو »

« شاعر ورحالة وفيلسوف »

بقلم عارف تامر – سلمية (سوريا)

تمهيد :

كانت الحياة السياسية في القرن الرابع الهجري مضطربة اشد الأضطراب في ايران والعراق ومصر والشام . ومنعدمة من اي اثر لآثار الهدوء والأستقرار والأطمئنان . فالخلافة الأسلامية كما يبدو كانت موضع اخذ ورد تتنازعها دولتان كبيرتان هما « العباسية » في بغداد و«الفاطمية» في القاهرة، ومن الثابت ان كلًا من الدولتين كانت تحشد القوى وتضع الأمكانيات في سبيل ازاحة الثانية وابعادها عن مركز الخلافة ، هذا فضلًا عن دويلات صغيرة متفرقة الأهداف والغايات كانت تتنازع الحكم والنفوذ والجاه ، ومهما يكن من شيء فأن مركز الخليفة العباسي في بغداد كان في هذه الفترة حرجاً وخاصة بعد ان صار هذا الخليفة يلتجئ الى ملوك صغار لتحميه وترد الأذى عنه (كأحمد البويهي) الشيعي وغيره ، اما الدولة« الصفارية » فقد كانت تحاول الأعتداء عليه بينما تبادر الدولة « السامانية » الى حمايته ، وتأتي الدولة الفاطمية لتبعث بدعاتها الى « السامانيين » و « الغزويين » و« البويهيين » وغايتها تمهيد السبيل للقضاء نهائياً على الخلافة العباسية ، وقد نجحت هذه الدعوة الى حد ما اذ انضم الى دعاتها امير الري (احمد بن علي) و (حسين بن علي المروزي) من «الأمراء» وقد رغب هذا الأخير في ان تعم الدعوة الفاطمية بلاد ما وراء النهر، فنصح الى الداعي الفاطمي « النخشبي » ان يسافر اليها وان يعمل على استمالة « نصر بن احمد الساماني » فنجح (النخشبي) في بغيته واصبح نصر من الأسماعيلية وقد دفع للامام الفاطمي « القائم بأمر الله » اموالاً ضخمة تعويضاً له عن قتل

... حسين بن علي المروزي في « تجارب » ، وتتطور الأمور بعد مخاض طويل وتنقلب الى حوادث خطيرة اشد هولاً وعنفاً ويمكن تلخيصها بما يلي :

تقسم حلب في الدولة العباسية بين (القائم بالله) العباسي الخليفة السادس والعشرين والقائد العام لجيوش العباسية (ابي الحارث ارسلان البساسيري) الملقب (بالمظفر) الذي يقال انه ينتسب الى (امراء بني بويه) الشيعيين ، واضطرار الخليفة العباسي للاستنجاد بالقائد السلجوقي التركي الأصل (طغرل بك) ، وفي هذه الأثناء يغد (داعي دعاة) الدولة الفاطمية — (المؤيد في الدين) (هبة الله الشيرازي) او (لورنس الفاطميين) كما اسميه الى العراق للأتصال بالبساسيري وتشجيعه على ثورته وليضع تحت تصرفه جميع الأمكانيات المادية والمعنوية التي تكفل له التغلب والأنتصار على العباسيين وحمله على مواصلة القتال ثم اغراء القبائل العربية المجاورة على شق عصا الطاعة والثورة على نظام الحكم العباسي تحت تأثير الأموال الكثيرة والهدايا والخلع التي كان يغدقها « المؤيد » على الزعماء والشيوخ والأمراء بلا عد او حساب ، وفي هذه الفترة يستولي « ثمال بن صالح بن مرداس » تاج الأمراء على حلب ويباشر حرباً شعواء مع (منيع بن شبيب النميري) صاحب (حران) بشأن (الرقة) ، اما (البزنطيون) و (السلجوقيون) فيوقعون معاهدة صداقة وتحالف تقضي بغزو املاك الدولة الفاطمية في الشام وأعالي الجزيرة ، بينما ينضم الى جيش (البساسيري) بتوجيه (المؤيد في الدين) كل من (الامير نور الدين بن دبيس بن مزيد الاسدي) وصاحب (الحلة العراقية و (قريش بن بدران العقيلي) . مضافاً الى كل ما ذكرناه نشوب معركة (سنجار) الكبرى ودخول جيوش (البساسيري) (بغداد) (والموصل) (والكوفة) (وواسط) واعلان الخطبة بأسم (الامام الفاطمي الخليفة المستنصر بالله) وقد ظلت الخطبة قائمة ببغداد مدة تزيد على العشرة شهور ، ثم ضرب السكة بأسمه وانشاد الآذان الفاطمي (حيّ على خير العمل) ولقد اقصي ايضاً الخليفة العباسي (القائم) عن بغداد بعد ان وقع صك التنازل وانتزعت عمامته وشرفة من قصبه وبردة النبي وأرسلت جميعها الى القاهرة اشعاراً بالظفر ، وفي هذه الاثناء يستخلص القائد الفاطمي (ابو علم بن ملهم الخويلدي) حلب من (ثمال بن صالح بن مرداس)) وبعد كل هذه الانتصارات يدب

الانقسام اخيراً في جيوش (البساسيري) فينقسم الى شيع وأحزاب . وتذر الطائفية والعنصرية بقوتها معلنة الفتنة العمياء. مما مهّد (لطغرل بك) الانتصار على (البساسيري) واجباره على الهرب .

بينما كل هذا يجري في بغداد كان الاضطراب قد اخذ ينذر القاهرة مهدداً بأوخم العواقب، فتختل شئون الوزارة، ويتتالى الوزراء. واحداً بعد واحد، فمنهم من يمكث فيها شهوراً، ومنهم من كانت مدة وزارته اياماً، ومنهم من يمكث يوماً واحداً ، الى ان استدعى الامام الفاطمي (المستنصر بالله) (بدر الجمالي) وكان حاكماً عسكرياً في «عكا» وفوّض اليه جميع الامور، وفي الوقت نفسه كانت امصار الفاطميين بأفريقية تمتنع عن تأدية ما عليها من ضرائب وتعلن استقلالها لتعود الى طاعة العباسيين ، وتتحرك قبائل (بني هلال وسليم) العربية النجدية الاصل من مصر العليا نحو الغرب لتعيث فساداً في (طرابلس) مدة طويلة ، ويغشى (النورمانديون) (صقلية) وكانت من املاك الفاطميين ، وفي الشام كانت الحالة في شبه فوضى والولاة والوزراء لا يكاد احدهم يستقر فيها حتى يخرج معزولاً او مذعوراً، والامور تزداد سوءاً واهل البلد احزاب يثورون بالولاة والقواد ، ثم تتأجج نار الفتنة ويثور اهل دمشق بأمير الجيوش (بدر الجمالي) والي الشام ، وفي هذه الفترة نفسها ايضاً يتم استيلاء (معلى بن حيدرة الكتامي) على دمشق فيضطر للهرب بعد ايام من دخوله بسبب الفتنة التي وقعت بينه وبين عساكر المدينة ، وتقطع خطبة الفاطميين نهائياً من الشام ، كما ان القدس تفتح من قبل (اتسز بن اوق الخوارزمي) وهو احد امراء السلجوقيين ثم يظهر فشله عند محاولته فتح الشام، ويبدأ الصليبيون زحفهم باتجاه القدس ويتم فتحهم (لمعرة النعمان) و (انطاكية) ، وتتم هزيمة جيوش الفاطميين بقيادة (الافضل بن بدر الجمالي) بجوار بيت المقدس عائدة الى «عسقلان» ثم الى مصر .

في هذا الجو المضطرب ، وفي وسط هذا البحر الزاخر بالقلق الفكري نشأ الشاعر الكبير والرحالة المبقري والفيلسوف العظيم «ناصر خسرو» ، ومن هذه الاحداث الخطيرة يستمد خطوط منهاجه في الحياة ، ويقوم برحلته الكبرى المشهورة التي تحدثت بها الركبان، ويستقر في القاهرة لمدة ثلاث سنوات بالقرب من مركز « الامامة الفاطمية » حيث يلتقي بأمنيته الغالية التي طالما متى نفسه

والاستطلاع بنصه ، وبالغ من معينها ، والارتواء من ينبوعها ، واعني بها (الدعوة الاسماعيلية) التي كان يعمل لنشر فلسفتها ، والتبشير بفكرتها ، وبمناسبة ذكر الرحلات نقول ان اقدم ما عرف من الرحلات في تاريخنا الشرقي : رحلة (ابن فضلان) رسول (الخليفة المقتدر بالله) العباسي الى بلاد (البلغار) القديمة ، وهذه الرحلة تمت في القرن الثالث للهجرة وقد نقلها ياقوت وجاء على ذكرها في معجم البلدان ، ومن الرحلات المعروفة ايضاً رحلة (ابن جبير) في القرن السادس الهجري ، ورحلة (ابي الحسن الهروي الموصلي) في القرن السادس نفسه ، ورحلة (البلوي المغربي) ، ورحلة (ابن بطوطة المغربي) في القرن الثامن ، اما رحلة (ناصر خسرو) فتقع بين سنة ٤٣٧ هـ وسنة ٤٤٤ هـ ، فهي قبل رحلة (ابن جبير) بمئة عام ، وقد بدأت في (مرو) وفي (خراسان) ثم (بآذربيجان) و (أرمينية) و (الشام) و (فلسطين) و (مصر) و (الحجاز) و (نجد) و (جنوبي العراق) .

حياته

هو الحكيم (ابو المعين ناصر بن خسرو بن الحارث القبادياني[1] المروزي[2] البلخي البدخشاني) . نشأ في اسرة متوسطة الحال لا هي بالغنية ولا هي بالفقيرة ، وتثقف ثقافة واسعة ثم التحق بخدمة السلطانين الغزنويين (محمود) ثم ابنه (مسعود) ، وبعد ان افلح السلاجقة بالقضاء على الدويلات الشرقية والامارات الصغيرة ، وأصبح الامر لهم التحق ناصر بخدمة (جغري بك السلجوقي) حاكم خراسان وتولى امر خزانته في (مرو) وكان يدأب على قراءة اراء (الفارابي) (وابن سينا) واشتغل بتحصيل العلوم والبحث في الاديان والعقائد والاطلاع على شعراء الفرس والعرب وأخذ من كل فن طرف حتى بلغ درجة كبيرة في الفضل والعلم والحكمة . كانت ولادته سنة ٣٩٤ هـ في (قبادیان) وقد توفي صبيحة يوم الجمعة في الثامن والعشرين من ربيع الاول سنة ٤٨١ هـ ببلدة (فاريمكان) من مواضع (بدخشان) وهذه البلدة تزج اليها فراراً من مناهضة

١ و٢) قبادیان ومرو بلدتان في فارس الاولى واقعة بالقرب من (بلخ) والثانية مدينة مرولاية بالقرب من ترمز على (نهر جيحون) .

امراء السلاجقة وعلماءها وفقهاءها الذين ناهضوه ووشوا به ودسوا عليه ، وقد عاش سني حياته (بالتقية) حتى وفاته وقد رثاه اخوه (ابو سعيد) فقال :

طوبت بلاد الله علّمت حكمة ... وصرت بين الناس قرماً يمجّدا
وقد فتت يلاغوش بأسوء حاله ... والزمت افلاطون لفاً مسددا
غلّبت بالتقوى وما يتقرى بها ... ورقّيت معراج السلاطين بالندى
وجاهدت خمساً وعشرين لبسة ... وسافرت بالأبطاح كالطير تغتدى
ملأت الدنا بالمدح والذم شاهداً ... وصادفت مأمول البرية مرصدا
فأسكنت غور الغار غير مغاثر ... سوى رحمة الله الكريم وقد بدا
فعاقبة الدنيا خسار وذلة ... وفرقة احباب اذا ما تأبدا
سقاك اله الناس سقياً مرويّاً ... وابسك الغفران يا ناصر الهدى[1]

آثاره ومؤلفاته

« الديوان » كان يبلغ ثلاثين الف بيت ولكنه الآن اثني عشر الف بيت – تحقيق تقي زاده – طهران سنة ١٩٢٩ . طبع على الحجر في تبريز سنة ١٢٨٠ ه .

« سفرنامه » او كتاب رحلاته وقد ترجمه المستشرق (شيفر) باريس (١٨٨١ م) طبع هذا الكتاب ايضاً سنة ١٣٠٤ه. وقد ترجمه الى العربية الدكتور يحيى الخشاب سنة١٩٤٥

« وجه الدين » ترجمة وتحقيق كاڤياني ، برلين ١٩٢٤ .

« زاد المسافرين » « » ١٩٢٣ ترجمه للعربية الدكتور يحيى الخشاب وطبع سنة١٣٦٤ه.

« خوان الاخوان » « » الدكتور يحيى الخشاب القاهرة ١٩٤٠ .

« روشنائي – نامه » او « الضياء » نشره (انيه) وترجمه وعلّق عليه في مجلة المستشرقين الالمان سنة ١٨٧٩ م وحققه المستشرق « ايڤانوف » ونشرته – الجمعية الثقافية الاسماعيلية – بومباي ١٩٤٩ .

« كشايش ورهايش » تحقيق السيد نفيسي بومباي – ليدن – ١٩٥٠ – من منشورات الجمعية الثقافية الاسماعيلية بومباي .

« جامع الحكمتين » ترجمة وتحقيق هنري كوربان ومحمد معين من منشورات المعهد الافرنسي للدراسات الايرانية طهران ١٩٥٣ .

« سعادة نامه » او كتاب السعادة وقد نشره (ڤانيان) في جزء ٣٤ من مجلة المستشرقين الالمان ص ٦٤٣ الى ٦٧٤ .

« ام الكتاب » نشر ايڤانوف ١٩٣٦ وعلق عليه مجلة الدروس الاسلامية باريس ١٩٣٢

« بستان العقول » ، المفتاح والمصباح ، دليل المتحيرين ، الدلائل ، لسان العالم ، اختيار الأيام واختيار الايمان ، كنز الحقائق ، تفسير القرآن ، ارشاد السالكين ، اصول

---

١) جامع الحكمتين – المقدمة ص ١٩ .

لآلئ ، صحيفة المشرقين ، روضة المسيحيين ، مطلب المشتاقين ، تصانيف مؤلفه ، ورسائله ، وله غير هذا كثير من البحوث والمقالات وهو نفسه يقول :

« لا تنظر الى ضعف جسمي فقد قلت الكثير من الكلام
وفي من الآثار ما يربو عمًّا في الفلك من النجوم »

وقال :

(لم يبقَ نوع من العلوم كان جديرا الا استفدت منه قليلًا وكثيرا)

منتخبات من اشعاره

« رأيت في الفلاة رجلًا ، مزقت جسده الذئاب
فنهش الدب لحمه ، وطعم منه الغراب . . . !!
وتبرز النسر ، فتبرز في قنن الجبال والقفار
وتبرز الغراب . فتبرز في قاع البلاقع والآبار . . . !!
فهل يستطيع ان يحيى مثل هذا الرجل في يوم النشر والنشور . . . ؟ »

○

« خرج ناصر خسرو ليتنزه في يوم من الايام
مثل الرأس ولكن بغير الكأس والمدام . . . !!
فرأى غزلة الى جوارها جملة من القبور
فنادته الغزلة وقالت له : لا تنظر اليَّ في فتور . . . !!
وتأمل حال الدنيا . . . وما اعدت من نعم لضحاياها الساكين
فقد اشتمل جوفي على نعمها . واشتملت القبور على الآكلين الجاهلين . . . !!

○

يا رياح الصبا . . . تحملي مني الى خراسان السلام
الى اهل الفضل والعقل منها . . لا الى العوام والطغام . . . !!
كما حملت اخباري الصحيحة اليهم . . .
احملي اليَّ ثانية اخبارهم ، وحدثيني عنهم . . . !!
وقولي لهم : ان الدنيا قد خنت عودي المستقيم
وحطمتني بمكرها المعروف وغدرها المقيم . . . !!
فحذار ان تدع عهودها ترقدك في الغرور والآثام
فانها لا ترعى لاحدٍ عهدًا . . . ولا تعرف الوفاء والدوام . . . !!

○

فكري شجرة مورقة طيبة الثمرات
اوراقها العفة ، وثمارها العلم والطيّبات . . . ! !
واذا شئت ان تدرك حالي على الحقيقة وفي جلاء
فانظر اليّ بعين البصيرة ، كما يفعل العقلاء . . . ! !
ولا تنظر الى جسدي الضعيف الراهن . . . وانظر الى اقوالي ذات الرواء
فلي آثار كثيرة . . . يزيد عددها على نجوم السماء . . . ! !
وشكرًا لله . . . انه هداني الى طريق العلم والدين
وفتح لي . . على مصاريعه . . . ابواب الرحمة واليقين . . ! !
وجعلني اشهر من الشمس في اوج السماء
لأني عرفت بحبي (لآل الرسول) والأئمة الأصفياء . .

c

وانت ايها الجسد الجاهل . . . ليس لك عمل الا النوم والطعام
ولكن العقل لديّ خير من الاكل الطيب وطول المنام . . . ! !
وفي رأي العقلاء ان لا عمل للخبير . . . الا النوم والغذاء
ومن العار ان يكون حالي كالحمار ، مع ما لي من عقل وذكاء . . . ! !
وانت يا جسدي . . . سوف لا اقيم وزنك في هذه الدنيا الفانية .
لان الله يدعوني الى داره الثانية . . . ! !
حيث يعتبرون المجد بالاعمال والفضائل ، لا بالنوم والاكل
فليكفك النوم والاكل . . وليكفني الفضل والعقل . . . ! !
وقد ذهب قبلي ما لا يعد من الناس والأنام
ومهما طال بقائي . . فأعتبرني ممن اودت به الايام . . . ! !
وسأطير بجناح الطاعة ذات يوم . . . فأخرج من هذه الثنية العالية
وكأني الطائر يضرب بجناحيه في اطباق الهواء العالية . . . ! !
وجميع الناس يحذرون ضربات القضاء والقدر
ومع ذلك فها دليلا طريقي في هذا السفر . . . ! !
و(القضاء) اسمه (العقل) و (القدر) اسمه (الكلام)
وقد اصبح عقلي ونفسي افصح من يحدثني الآن بأمري
فلم الحذر والخوف من نفسي ، وما يجيش به صدري . . . ! !
ويا من قنعت من القضاء والقدر بالاسم والكلام
اذا ظننت نفسك دابة . . . فلا تظنني ايضًا من الانعام . . . ! !

الخلاصة

عسى ان يكون ما قدمناه في هذه الصفحات كافٍ لتعريف هذا الشاعر «الاسماعيلي» الكبير صاحب الآراء الفلسفية العظيمة، والنظريات العلمية المفيدة الذي لعب دوراً هاماً في مجال الفكر الاسلامي وكتب احسن البحوث والكتب في الفلسفة والحكمة والعلوم.